الفصل الرابع

تعليم النساء

جاء فى كتاب البيان والتبيين الوصية الآتية: «لا تعلموا بناتكم الكتاب (أى الكتابة) ولا تروهن الشعر، وعلموهن القرآن ومن القرآن سورة النور»[1]. وقال ابن بسام: «ولا يعلم الخط لامرأة ولا لجارية لأن ذلك مما يزيد المرأة شرا. وقد قيل إن المرأة التى تتعلم الخط كمثل الحية تسقى سما»[2].

ومما يروى من الحديث عن عائشة أم المؤمنين أنه يجب أن يمنع النساء عن تعلم الكتابة ويكتفى بتعليمهن سورة النور وصناعة الغزل. ويظهر مما سيأتى أن هذه الوصايا وهذه الآراء لم تحفظ ولم تطبق، إذ ضرب بعض النساء بسهم كبير من العلم والتربية منذ نشوء الإسلام إلى وقتنا هذا. قال البلاذرى فى كتاب فتوح البلدان: «إن النبى ﷺ قال للشفاء بنت عبد الله العدوية من رهط عمر بن الخطاب ألا تعلمين حفصة رقية النملة كما علمتيها الكتابة؟، وكانت الشفاء كاتبة فى الجاهلية» وقد ذكر البلاذرى أيضا أن «حفصة زوج النبى ﷺ كانت تكتب. وكذا كانت أم كلثوم بنت عقبة تكتب. وقالت عائشة بنت سعد: علمنى أبى الكتاب». وروى البلاذرى أيضا «حدثنى أبو الوليد عن الواقدى عن موسى بن يعقوب عن عمته عن أمها كريمة بنت المقداد أنها كانت تكتب». وكانت عائشة تقرأ المصحف ولا تكتب. وأم سلمة أيضا كانت تقرأ ولا تكتب». فيستنتج أن النساء اللواتى كن يقرأن أو يكتبن فى صدر الإسلام كن: الشفاء وحفصة وأم كلثوم وعائشة بنت سعد وكريمة بنت المقداد وعائشة وأم سلمة - أى سبع نساء[3]. وهكذا يقرب عدد اللواتى كن

---

(١) البيان والتبيين ٢: ٩٢.

(٢) كتاب نهاية الرتبة فى طلب المسبة [مخطوطة - راجع مجلة المشرق ١٠: ٩٦١].

(٣) فتوح البلدان للبلاذرى ص٤٧٧.

يكتبن من نصف عدد الـذين كانوا يكتبـون عند ظهور الإسلام، إذ يذكـر البلاذرى أنه، «دخل الإسلام وفى قريش سـبعة عشر رجلا كلهم يكتب». وكـان منهم عمر ابن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعثمان بن عفـان وأبو عبيدة وطلحة ويزيد بن أبى سفيـان وأبو حذيفة ومعاوية. هذا، ومع أن بعض النظريات كـانت لا تشجع تعليم البنات كـما مر، فـيكفى المسلمين فعل الـنبى ﷺ لما أظهر رغبـته فى تعليـم النساء القراءة والكتـابة. وقد قال أيضا: «طلب العلـم فريضة على كل مسلم ومـسلمة». والأمثلة كثيرة على النساء العربـيات المسلمات اللواتى تعلمن القراءة والكتابة والنحو وروين الحديث. وزد على ذلك أنهن لم يتعلمن فـقط بل علمن غيرهن. وكان ممن درس على النساء بعض الرجال أيضا كما سنرى. وللبيان إليك أسماء النساء اللواتى ورد لهن ذكر فى كتاب «تهذيب الأسماء» للنووى:

١- أسماء بنت أبى بكر أخت عائشة لأبيـها وأم عبد الله بن الزبير. والكل يعرف احـترام عبد الله بن الـزبـير لأمـه أسماء، وكـيف أنه استشـارها فى العمل حينمـا تغلب عليه الحـجاج. وكلنا يذكر قـولها لابنها: «يا بـنى عش كريما ومت كريما». وأما نصيب هذه المرأة الفـاضـلة من الأدب فيظـهر مـن أنـه روى لها ستة وخمسون حديثا عن رسول الله ﷺ[1]. ويقال أن أسماء شهدت غزوة اليرموك مع زوجها الزبير، وأنها كانت شديدة البـأس وذكية وبلغت المائة من العمر ولم تسقط لها سن، ولم تضعف قواها العقلية.

٢- عائشة وليس بنا حاجـة إلى الإفاضة فى بيان ذكائها، فـإنها سميت بأم المؤمنين، وكانت تعرف الكتابة، ونالت احترام النبى ﷺ وثقته حتى أنه أمر الناس أن يأخذوا نصف دينهم عنها. ويذكر النووى أنه روى لها عن رسول الله ﷺ ألف حديث[2].

٣- أم الدرداء وهى جـديرة بالذكـر إذ كانت زاهدة فـقـيهـة يمكن القـارئ الوقوف على ذوقها الأدبى وتلذذها العقلى من قـولها: «لقد طلبت العبادة فى كل

(١) تهذيب الأسماء للنووى ص٨٢٣ [طبع ليدن].
(٢) تهذيب الأسماء للنووى ص٨٤٩.

شيء. فما أصبت لنفسي شيئا أشفى من مجالسة العلماء ومذاكرتهم». ويصفها النووى بقوله: «اتفقوا على وصفها بالفقه والعقل والفهم والجلالة». وعاشت هذه السيدة العربية فى أيام معاوية، وكانت تقيم ستة أشهر ببيت المقدس وستة أشهر بدمشق.

٤- علية بنت المهدى. قيل عنها أنها «كانت من أحسن الناس وأظرفهم، تقول الشعر الجيد وتصوغ فيه الألحان الحسنة.. وكانت لا تغنى ولا تشرب النبيذ إلا إذا كانت معتزلة الصلاة. فإذا طهرت أقبلت على الصلاة والقرآن وقراءة الكتب. فلا تلتذ بشيء غير قول الشعر»[١].

٥- نضار بنت أبى حيان. قال المقرى أن هذه السيدة «حجت وسمعت قراءة العلم على بعض الشيوخ... وحضرت على الدمياطى وسمعت على جماعة. وأجازها من المغرب أبو جعفر... وحفظت مقدمته فى النحو. ولما توفيت وضع والدها فيها كتابا سماه (النضار فى المسلاة عن نضار). وكان والدها يثنى عليها كثيرا. وكانت تكتب وتقرأ. ذكر الصفدى قال لى والدها أنها كانت تعرب جيدا وأظنه قال لى أنها تنظم الشعر. وكان يقول دائما ليت أخاها حيان كان مثلها»[٢].

٦- فضل المدنية. كانت حاذقة بالغناء كاملة الخصال، وأصلها لإحدى بنات هارون الرشيد. نشأت وتعلمت ببغداد[٣].

٧- قمر، جارية إبراهيم بن حجاج اللخمى صاحب أشبيلية. كانت من أهل الفصاحة والبيان والمعرفة بصوغ الألحان. وجمعت أدبا وظرفا ورواية وحفظا مع فهم بارع وجمال رائع. وكانت تقول الشعر[٤].

٨- ولادة المروانية. وصلت هذه السيدة براعة ولباقة إلى حد مداعبة الوزير ابن زيدون بأبيات من الشعر.

---

(١) الأغانى ٩: ٧٩.
(٢) نفح الطيب ١: ٦٠٣ .
(٣) نفح الطيب ٢: ١١٨.
(٤) نفح الطيب ٢: ١١٨.

٩- حسانة التميمية. تأدبت وتعلمت الشعر... ولما وقف الحاكم على شعرها استحسنه وأمر بإجراء مرتب لها.

البنات والمكتب:

لقد جئنا بأسماء بعض النساء العربيات اللواتى بلغن درجة من العلم والأدب. ويبقى أن نقول كلمة فى الوسائط التى وجدت لتعليمهن. أما هذه فكانت التعليم الخصوصى على مدرسين خصوصيين، وفى مكاتب خصوصية. ومما يذكر فى كتاب الأغانى تردد البنات إلى المكتب فى القرن الثانى للهجرة. وإليك ما رواه الأصفهانى: «كان بالكوفة رجل يقال له على بن آدم وكان يهوى جارية... وحدثنى بعض أهل الكوفة أنه علقها وهى صبية تختلف إلى الكتاب. فكان يجىء إلى ذلك المؤدب فيجلس عنده لينظر إليها»(١). وقيل أيضا عنه أنه «مر بمكتب فى بنى عبس بالكوفة فرأى فيه جارية»(٢). وقيل أن خليلا المعلم الملقب بخليلين «كان يؤدب الصبيان ويعلم الجوارى الغناء فى موضع واحد»(٣). وذكر الجاحظ أن «الوليد بن عبد الملك مرّ بمعلم صبيان فرأى جارية تتعلم القرآن»(٤). فمن هذا يظهر أن الفتيات ذهبن للتعلم فى المكتب، وفى بعض الأحيان تعلمن مع الفتيان كما هو معروف اليوم فى بعض الأماكن. فإننا رأينا فى القاهرة أحد المكاتب محتويا على الصبيان والبنات معا.

النساء والتدريس:

إن هذا القرن لهو عصر النساء. إذ نراهن يزاحمن الرجال على الأشغال والمهن مثل التعليم والطب والمحاماة. ومن الغريب أن بعض عرب اليوم يستنكرون مخالطة النساء للرجال ولا يحبذون اتخاذهن أعمالهم. ويظهر مما سيأتى أن عددا من النساء العربيات احترفن التدريس فعلّمن الرجال وأجزن لهم. كما فعلن ببنات جنسهن وإليك أسماء بعضهن:

---

(١) الأغانى ١٤: ٤٩.
(٢) الأغانى ١٤: ٤٩.
(٣) الأغانى ٢١: ٤٨.
(٤) البيان والتبيين ٢: ١٠٦.

١- أم المؤيد زينب، يقول ابن خلكان أنها «كانت عالمة وأدركت جماعة من أعيان العلماء وأخذت عنهم رواية وإجازة. وأجاز لها الحافظ أبو الحسن. ولنا منها إجازة»[١].

٢- فخر النساء شهدة. كانت من العلماء وكتبت الخط الجيد وسمع عليها خلق كثير. وكان لها السماع العالى ألحقت فيه الأصاغر بالأكابر... واشتهر ذكرها وبعد صيتها[٢].

٣- السيدة نفيسة ابنة أبى محمد. كانت من النساء الصالحات التقيات. وقد روى أن الإمام الشافعى لما دخل مصر حضر إليها وسمع عليها الحديث[٣]. ويعترف أبو حيان بأنه كان بين شيوخه ثلاث نساء وهن:

٤- مؤنسة بنت الملك العادل.

٥- شامية بنت الحافظ.

٦- زينب بنت عبد اللطيف[٤].

٧- شهدة الكاتبة بنت الأبرى. قرأ عليها عبد الرحمن بن داود صحيح البخارى[٥].

٨- العروضية. سكنت فى بلنسية وأخذت عن مولاها النحو واللغة لكنها فاقته فى ذلك. وبرعت فى العروض. وكانت تحفظ الكامل للمبرد والنوادر للقالى وتشرحهما. قال أبو داود سليمان: «قرأت عليها الكتابين وأخذت عنها العروض»[٦].

٩- مريم بنت أبى يعقوب الأنصارى. سكنت فى أشبيلية وقيل أنها كانت أديبة شاعرة مشهورة.. وكانت تعلم النساء الأدب[٧].

---

(١) ابن خلكان ١: ٣٤٧.
(٢) ابن خلكان ١: ٢٨٣.
(٣) ابن خلكان ٢: ٢٢٤.
(٤) نفح الطيب ١: ٥٩٨.
(٥) نفح الطيب ٢: ١١٧.
(٦) نفح الطيب ٢: ٤٣٠.
(٧) نفح الطيب ٢: ٤٩٣.

هذه بعض الأمثلة التى ربما أظهرت ممارسة النساء العربيات لفن التعليم وكفايتهن للمهنة. هذا، ولم يكن عدد المدرسات مقصورا على ما ذكرناه، فقد روى ياقوت أن شيوخ على بن الحسن بن عساكر بلغ عددهم ألفا وثلاثمائة، ومن النساء بضعا وثمانين[1].

وصفوة القول أن التربية عند العرب لم تنحصر فى الرجال بل شملت النساء أيضا، حتى أنه اشتهر عدد من العربيات بالذكاء وتوقد القريحة مثل الخنساء وعائشة وأسماء وغيرهن، ولما ظهر الإسلام وأخذت القراءة والكتابة فى الانتشار تعلمها بعض النساء كما فعل الرجال. ولما فتحت المكاتب والمدارس وانتشر العلم، كان للنساء نصيب من ذلك، إذ جاء ذكر للبنات فى المكاتب. هذا، وقد جئنا بالأدلة على تعاطى النساء الأعمال الأدبية مثل الكتابة والإنشاء ورواية الحديث وقول الشعر والتعليم. ولو لم يفتخر العرب بذكاء نسائهم فى العراق والشام ومصر والأندلس، لما ذكروا أنهن أجزن لهم وألقين عليهم الدروس. ولا نعنى بما جئنا به تعليم النساء أن العلم كان منتشرا بينهن كما هو اليوم منتشر بين نساء الغرب، ولا أن عدد المتعلمات كان يضاهى عدد المتعلمين عند العرب، غير أن ما وقفنا عليه يجيز لنا القول أنه كان لنساء العرب وسائط لتلقى العلم.

ومما هو جدير بالذكر أن عددا منهن انتهزن الفرصة وانتفعن من تلك الوسائط. وقد لا نخطئ إذا أسرفنا بالزعم وقلنا أنه إذا قابلنا نساء العرب بنساء الإفرنج فى القرون الوسطى، وجدنا حالة العربيات الأدبية فى درجة أرقى من حالة أخواتهن الإفرنجيات. ومن أظرف ما وجدناه عن النساء والأدب ما قاله صاحب الأغانى: «أن أبا دهبل كان يهوى امرأة من قومه يقال لها عمرة. وكانت امرأة جزلة يجتمع الرجال عندها لإنشاد الشعر والمحادثة»[2]. ومما يذكر عن جوار اشتراهن هشام بن عبد الملك أنه لما استنطقهن «رأى فصاحة وأدبا فاستقرأهن القرآن فقرأنه، واستنشدهن الشعر فأنشدنه قصائد الكميت»[3].

(١) معجم الأدباء ٥: ١٤٠.
(٢) الأغانى ٦: ١٦٠.
(٣) الأغانى ١٥: ١١٢.

والأستاذ المستشرق برون (E.G. Browne) الذى كان فى جامعة كامبردج يروى قصة عن إحدى جوارى هارون الرشيد ربما أظهرت حالة النساء من حيث التعليم، وهى أنه قدم لهارون الرشيد جارية ثمنها عشرة آلاف دينار. فدفع الخليفة الثمن المطلوب بشرط أن تؤدى الجارية امتحانا فى بعض العلوم. فامتحنت فى الفقه والتفسير والطب والفلك والعلوم اللغوية والشطرنج. ولم تكتف الجارية بالإجابة على الأسئلة بل طرحت هى الأسئلة على ممتحنيها، فعجزوا عن الإجابة[1].

ومما كان فى هذه الرواية من المبالغة، فلا شك أن الجوارى حصلن على الوسائط للتعلم والوقوف على شىء من الأدب العربى.

وعلى كل حال فمما لا ريب فيه أن النهضة العربية الحاضرة لن تنضج ولن تثمر ولن تصل إلى أوج مجدها، إن لم يكن للعربيات النصيب الأوفر فى مؤازرتها ونشرها. فكما أن العرب الأقدمين فتحوا المجال لنسائهم كى يساعدنهم فى حركتهم الأدبية، فلا شك أن عرب اليوم مضطرون إلى أن يفتحوا لهن المجال فى هذا العصر الذى لا يمكن أن تقوم لهم فيه قائمة بلا مجهود المرأة وسعيها وقريحتها وعطفها.

(1) Arabian Medicine E. G Browne p.31.